كتاب « من أسرار اللغة »

تأليف الدكتور ابراهيم أنيس

الأستاذ بكلية دار العلوم

للاستاذ عبد الستار أحمد فراج

لو أن كل متخصص فى نوع من العلوم أو لون من الفنون قدر قيمة ما درس وأخلص فى خدمة ما أهلته الحياة أو الدولة له لظفر العلم والأدب بأوفى نصيب من الإنتاج ولجنت الدولة والأمة أينع الثمرات . ولكن الجهود تختلف والبواعث تتفاوت ، لهذا اختلفت القيم وتباينت الشخصيات

وكم سافر أناس فى بعثات بعد أن اختارتهم الدولة وآثرتهم الأمة ، فمنهم من انشغل بمآرب قضاها الشباب هنالك ، ومنهم من عاد فأعجب بالمنصب مع زخرف اللقب ولم يفعل غير ذلك ، وقليل منهم من وهب الرشد وقوة الجلد فلم يكن من هؤلاء ولا من أولئك

أقول هذا بمناسبة ما ألفه أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس من كتب متعددة فى موضوعات مختلفة كانت كلها ثمار غرس أحسن القيام عليه والعناية به على ضوء ما درسه وتخصص فيه ، فأسرى وأمثاله نيام ، وأنتج وأشباهه خاملون . وآخر ما جلته قريحته هذا الكتاب الذى جعل عنوانه « من أسرار اللغة »

عاد أستاذنا من إنجلترا ١٩٤٢ ونحن إذ ذاك سلبية فى السنة الرابعة بدار العلوم فدرس لنا فقه اللغة وكنا على طرفى نقيض ؛ نحن متعصبون للقديم من آراء اللغويين لا نريد منه فكاكا ، رأيه فى تلك اللاحظات ، فشكر جهد الأستاذ الشرباصى فى المحاضرة وعبر عن أثرها الطيب فى نفسه ، ثم رد على اللاحظات واحدة واحدة ، قال عن الأولى : أحسب أنى شرحت عبارة « التصوير الفنى » ولكن فى غير صورة التعريف والتبويب ، فالكتاب كله إنما هو شرح وتمثيل وتطبيق ، وفى مقدمة فصل « التصوير الفنى » ما يغنى ، وقد تتابعت فصول الكتاب كلها لتشرح هذه القاعدة الكلية وتمثل لها وتوضحها

وقال عن اللاحظة الثانية : لا أذكر أن هذا كان مأخذى على أسلوب الرافعى ، بل أذكر أنه كان العكس ، فقد كنت آخذ عليه الألاعيب الذهنية فى التعبير ، والجمل التى ينبع ذيلها من رأسها ، والعكس ، والتى يحسبها القارئ ماشية « تتقصع ! » وتضع يديها فى خصرها على الطرس ! وليس شئ من هذا كله بسبيل من ذلك الأسلوب القرآنى الذى أبنت عنه فى الكتاب

وقال عن الثالثة : رأيى أنه مادام المعنى اللغوى يحتمل هذا ويحتمل المعنى الآخر ، وهو لطف المدخل والجاذبية فإن العرف الأدبى إذن هو الذى يحدد ، وعرفنا الأدبى الحاضر لا يعتبر سحر البيان معناه الخداع والتغرير ، بل يعتبر وصف استحسان

وقال عن الرابعة : أحسب أنى كنت أعنى معنى خاصا حينما قلت « المنطق الوجدانى » فأنا لم أعن مجرد التأثر الوجدانى ، بل « المنطق الوجدانى » فقد أردت أن أفرق بين هذا المنطق وبين « المنطق الذهنى » . والمنطق الوجدانى هو الذى يقوم على الانطباعات الوجدانية والمقدمات الوجدانية والتأثرات الوجدانية ، ولكنه « منطق » وليس مجرد تأثر ، أى أنه حكم تسبقه مقدمات من نوع معين ، أما المنطق الذهنى فهو الذى يقوم على الأقيسة الذهنية المجردة الخالية من الانطباعات والتأثرات . ثم جعلت للذهن وظيفته المحدودة فى بناء العقيدة ، ولم أنفه من مجالها بتاتا

وقال عن اللاحظة الخامسة : أحسب أن معنى إدراك سر الإعجاز فى التعبير القرآنى لا يعنى الكشف عن سر إعجاز القرآن ، فإعجاز القرآن لم يكن فقط فى تعبيره ، بل فى خصائص أخرى كثيرة ترجع إلى صميم الأفكار والمبادئ التى تضمنها ، أما إعجاز التعبير فكل جيل يدرك سره كما يراه ، ولا يمنع هذا أن يأتى جيل آخر فيدرك هذا السر من زاوية أخرى

عباسى نصر